المحاضرة الثانية: الاتجاه التطوري (شبلي شميل)

لقد عرف الفكر العربي الحديث، في مستهل «عصر النهضة»، وتحديداً في أواسط القرن التاسع عشر، تيارين متقابلين: تيار الإصلاح الديني الذي يمثله كلٌّ من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا من جهة، والتيار الليبراليالتغريبيالذي برز فيه شبلي شميِّل و«فلسفته في النشوء والارتقاء» إلى جانب فرح انطون، وسلامة موسى وغيرهم.

أولاً: الداروينية في فكر شبلي شميّل

يبني شبلي شميّل (1850 ـ 1917) منظومته الفكرية على نظرية داروين التطورية، ويعد أوّل من أدخل هذه النظرية إلى الفكرالعربي، وهذا أهم ما كتبه من خلال مؤلفه: "فلسفة النشوء و الارتقاء " حيث يجمع فيه خلاصة فكره التطوري وما تحمله نظرية داروين من أفكار صاغها بأسلوبه الخاص مع بعض الإضافات حيث أطلق عليه هذا العنوان إسوة بكتاب داروين الذي يحمل عنوان" النشوء و الارتقاء".اعتمد شميّل على نظرية داروين ليشرح انطلاقاً من فكرة الارتقاء والتطور أو النشوء البيولوجي ما يؤدي إلى الارتقاء السوسيولوجي الاجتماعي ويقصد هنا نشوء الأمم وتطورها عبر التاريخ، فكما ينشأ الجسم الإنساني ويتطور كذلك ينشأ المجتمع ويتطور، وينتقل من حال إلى حال ليكون أفضل حال من الجسم السوسيولوجي الذي سبقه حيث يتخلص من الشوائب المحيطة فيه بعد كل مرحلة. فالنشوء هو القاعدة الأولى التي يرتكز عليها الجسد ليتخلص من الانحلال والعجز الذي يقيم فيه، كما يرفض الجسم الحي الأمراض التي تحيط به ليستمر. وهنا يمكن القول أن الجسد لا يختلف عن الأمة، و قد استعان شميّل بمشابهة "سبنسر" بين سنن الحياة وسنن الاجتماع.

ثانيا: فلسفة شبلي شميل المادية

يعتبر شبلي شميّل من طليعة المفكرين في الفكر العلمي وفلسفته المادية، ويقصد بالمادية التيار الفكري المناقض للمثالية، والذي يرى أصحابه أنّ أصل الكون مادة، وشميّل هو أول من نقل المذهب المادي في صورته التي كانت عليه في ألمانيا أوائل القرن التاسع عشر إلى العالم العربي.

حيث يذهب أصحاب هذا التيّار أمثال "داروين" و"بوخنر" إلى القول أن كل ما في الوجود كان في أصلهمادة، ويشرح نظرته المادية للأشياء في كتاب "فلسفة النشوء والارتقاء ". يرى شمّيل أنّ الأشياء موجودة في الكون منذ الأزل وستبقى إلى الأبد في حركة تحوّل دائمة أو ما يسميه "التطور"، أي الانتقال من حال إلى حال، وفي كل مرّة تتدرج الأشياء وتتغيّر فتأخذ شكلاً جديداً مختلف عن الشكل الذي سبقه، وهذا التطوّر إنما يعود لقوة تكمن في أصل المادة، ويستمر هذا التطور إلى ما لا نهاية دون انفصال، فكل شكل يرتبط بالشكل الذي سبقه في علاقة تسلسل. و ينبثق عنه فيأخذ شكلاً آخر، وفي كل مرحلة تشكّل جديدة تصبح الأشياء أكثر تعقيدا، فتكثر صفاتها وتتبدّل خصائصها وتزداد أهميّة. ويصور لنا الأشياء في تدرجها (نبات، حيوان، إنسان، معادن، الخ.....). حيث أن الإنسان أرقى ما يتوصل إليه التدرج من كائنات وأسمى ما ينتج عن تكوّن المادة في طريقها التسلسلي عبر الزمن، فهو قمّة التطور القادر على تسيّر كل الكائنات الأخرى وفق مصلحته الخاصة ومشيئته.

وكأنّ الكون كله مسيّر لخدمته، فقد عرف الإنسان منذ القدم بسيادته على باقي الكائنات، ولا يسعنا إلا أن نذكر الأهمية الكبرى التي أعطاها شميّل للإنسان وفكره ليس كروح بل كجسد تشكلت المادة عبر السنين ليصبح بالصورة التي هو عليها.وينطلق شميّل في أطروحته من الطبيعة بكونها المعطى الوحيد والحقيقي في الكون الذي يساهم في تشكّل المادة وتكوّنها وتطورها حتى يصل إلى الإنسان، الغاية العليا لتسلسل الكائنات، ولا يقبل بأيّ علة أخرى مفارقة للمادة يعلل بها الوجود. وقد انطلق شميّل من القانون الطبيعي ليدعو إلى نهضة جديدة في العالم العربي خصوصاً، وترك المقدسات التي لا تمت إلى المادة بصلة، حيث تبّنى القانون الطبيعي والعلم، كونه الدين الوحيد والمعطى الوحيد والوسيلة الوحيدة لحل لغز الكون وثغراته بعيداً عن كل العلوم الإنسانية الغير حقيقية والغير واقعية.

ثالثا: النهضة في فكر شبلي شميل

ـ أسباب تخلف العالم العربي: يصور لنا شبلي شميّل المجتمع كجسد تتكامل أعضاءه، ومن الطبيعي أنّ مدى استمرارية الحياة في هذا الجسد، تتعلق بمدى اتفاق هذه الأعضاء مع بعضها

البعض. ويرى سبب انحلاله وضعفه إلى سببين: الأوّل ضعف في الرأس، والثاني غياب ما يسميه شميّل التكافؤ والتكافل بين أعضاءه. كذلك الجسد في العالم العربي إنما يعود سبب تأخره وتراجعه الفكري والثقافي والحضاري إلى ضعف الرأس الحاكم بالإضافة إلى غياب التكامل والتعاون وعدم الوحدة بين أبناءه. والخطأ في ذلك برأي شميّل يعود إلى تفضيل المصلحة الخاصة على المصلحة العامة.والمسؤول عن هذا الخطأ يتمثل في:

1 ـ أنظمة الحكم: فالجسد المريض يحكمه رأس فاسد. والمجتمع المتأخر تحكمه أنظمة سياسية فاسدة، تكرس أوضاع الظلم والقهر والعبودية، حيث نجد الاستبداد سيّد الحكم فيها وقانونها الحتمي والوحيد ويتخذ بذلك شكلين: السلطة على الفرد على أساس الدين والثاني فكرة الحكم الملكي التسلطي الذي يظهر بكثرة في العالم الشرقي حتى يكاد يصبح منبعه الأصلي.

2 ـ الحاكم: الكثيرمن الحكام الاستبداديين، هم حكام جاهلين أشرار فاسدون، يرهبون الناس ويحرمونهم من أدنى حقوقهم، فيميتون الحب في نفوسهم والشهامة والشجاعة، ليبقوا خاضعين لهم مدى الدهر، فهم لا يملكون سوى السلطة ليسخرون كل شيء من أجل أمجادهم ومصالحهم.

3 ـ المحكوم: هو المسؤول عن الظلم الذي يعيشه، فبجهله كان مستعبداً ومهانا، ميت النفس، منحط الهمّة والخلق، يسيطر عليه الرياء والتزلف، يؤمن بطاعة ظالميه. وهو لجهله مطيع، ومستعد للتضحية في سبيل ظالميه دون أي مقاومة أو محاولة رفض لواقعه الأليم.

4 ـالفلسفة:إن الفلسفة حسب شميل وراء الواقع السياسي المتردي في المجتمعات الإنسانية. حيث تدرس في الجامعات والمدارس فيتربى الناشئة عليها، حتى رسخت على أساساتها علومنا وأنظمتنا الاجتماعية والسياسية.ومن البديهي أن تتأثر الحالة الاجتماعية بهذه الأوضاع السياسية السيئة و تنحط عقول أفراده و يطعن الإنسان في كرامته وحريته، ثم يصاب بحالة التقهقر والجمود. و يصنف شميّل الفلسفة من بين العلوم الزائفة، وعندما نستنبط منها الشرائع تكون هذه الأخيرة زائفة أيضاً و غير طبيعية وغير حقيقة، وتؤدي إلى أنظمة حكم زائفة. فكل ما يناقض العلوم الطبيعية هوحكم غير طبيعي وغير صحيح.

5 ـ الدين: يعتقد شميّل أنّ الدين يضع الطبيعة والكائنات في قبضة قوة إلهية أبدعت الكون وأجرت في حركته ونظامه مشيئتها، وهذا ما يصادر جزء كبير من الحرية الإنسانية، بالإضافة إلى أنّ الدين هو المسؤول عن الأنظمة الثيوقراطية حيث يستغلونه الحكام لخدمة مصالحهم وهي المسؤولة عن كل ما لحق الاجتماع البشري من تقهقر واستبداد. وكذلك النظرة المتخلّفة للدينعندالمؤمنين المتعصبين تخلق أحقاد تعطل فكر المجتمع وتحول دون تطوره. والدور الكبير في ذلك لرؤساء ورجال الدين الذين يجدون مصالحهم في خضم هذا التعصب الأعمى .الذي يؤدي فيما بعد إلى تعصب فكري يمنع المجتمع من الاطلاع على كل ما هو مناقض لفكره الميتافيزيقي ويقصد العلوم الطبيعية كونها شعلة الأمل الوحيدة في طريقنا إلى التقدم والنهضة والتطور الطبيعي الذي يحكم الكون.

ـ أسباب نهوض العالم العربي

إن الجسد يكون صالحاً للبقاء عندما تعمل كل أجزاءه بالتعاون مع بعضها البعض، هكذا يقوم المجتمع بعمله على أحسن وجه عندما تعمل أجزاؤه معاً في سبيل خير المجتمع، فالتعاون ناموس المجتمع الأعلى، هذا ما قاله شميّل مؤكداً على أهمية الحفاظ على بقاء الجسد وكذلك المجتمع، فعندما يتعاون أبناء المجتمع الواحد يمكن للأمة أن تنهض، فبالتعاون قوة، وقد جعله شميّل قانون المجتمع الأعلى، حيث تتمكن الرعية بقوّته هذه من التخلص من الحكم الاستبدادي، وسيطرة الحكام عليهم لضعفهم وعدم جرأتهم على مقاومتهم. وإرادة التغيير هذه لا تكون عامة إلاّ إذا صاحبتها وحدة اجتماعية، تنبع عن الرغبة في التحرر والتطور، والمحبة الحتمية بين الأفراد، وهذه المحبة لا ترتقي إلا بالتجارب والثقافة العلمية الصحيحة، و هذا لا يحصل إلاّ إذا تزود الذهن بالمعارف ليحصل على حريته الفكرية ثم الإنسانية. و التي تعد من أهم الحقوق التي تنادي بها المجتمعات الحديثة منها حرية المعتقد، حرية القلم، حق الإنسان في التعبير بحرية، وهي تساعد على نقل الأفكار من حيز الذهن إلى حيّز الوجود المحسوس. والاعتداء عليه هو اعتداء على الإنسان، لذا يؤكد شميّل على أهمية التعاون بين أبناء الشعب الواحد، نظراً لأهميته على صعيد

الفرد بحد ذاته والمجتمع بشكل عام. فالوحدة قانون الوجود الطبيعي، وكل الأشياء تتعاون فيما بينها في وحدة. ويجب أن يبنى التعاون بين الحاكم والمحكوم على قاعدة الوعي بعدم التناقض بين المصلحة الخاصة ومصلحة المجتمع الواحد، وعندما نتحرى عن حقيقة النظام الطبيعي في المجتمع يتضح لنا بنظره هو النظام الجمهوري الاشتراكي، أي أنه نظام المواطنين جميعاً ليس الفرد أو الطبقة، و الذي يقوم على ثلاثة مبادئ :حكم الشعب أو الأغلبية.العدالة المساوية بين الجميع في الحقوق والواجبات.الحرية الفردية و الكرامة الإنسانية.

هذا هو النظام المستقبلي حسب شميل الذي يمثل أقصى ما يمكن للطاقة البشرية إدراكه بالفعل. لأنه يؤمن بحرية الرأي و التعبير عن إرادة الشعب الذي يعتبر مصدر السلطات وهدفها الأخير، ويؤيد الحكم الديمقراطي كأفضل حكم يعبر عن إرادة المحكومين من خلال قانون الانتخاب الذي ينص عليه. وهو يرفض بشدة التفرد بالحكم والاستبداد بالرأي كما هو الحال في أكثرية المجتمعات العربية ليؤكد على أهمية التعاون بين أبناء المجتمع الواحد، حيث يخضعون للقانون والقانون الطبيعي وحده، الذي يجب أن يصبح من وجهة نظره قانون المجتمعات جميعها. و كما أنّ كل ما في الوجود في حالة تطور دائم، كذلك القوانين لا يجب أن تبقى ثابتة، بل يجب أن تخضع للتغيير وفق ما تقتضيه مصلحة الأمّة، فنجاحها مرتبط بمقدار ما تخدم المصلحة العامة والخير العام، وتعبّر عن إرادة الشعوب. حيث تتكسّر قيود العقل وتفتح آفاق التطور والانطلاق في ركب المدنية، عندها سيصبح العلم دين العالم الأوحد.